الباب الثاني

المرحلة الأولى

البداية

obeikandl.com

obeikandl.com

الوقفة الأولى

[كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر] .

الدرس الأول: ترك فضول الكلام :

فضول الكلام هو الزيادة في الكلام التي لا فائدة منها.

يقول الشيخ وحيد عبد السلام:

وهو الزيادة التي لا فائدة من ورائها، فإذا أدى مقصوده بكلمة فذكر كلمتين فالثانية فضول، قال تعالى: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء : ١١٤] .

وعن ركب المصري مرفوعاً: " طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله " رواه البيهقي، وحسنه ابن عبد البر. وركب فيه خلاف، قال البغوى: " لا أدري أسمع من النَّبيّ أم لا " .

وقال ابن مسعود: " أنذركم فضول كلامكم، حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته "

وقال مجاهد: "إن الكلام ليُكتب، حتى إن الرجل ليُسكِت ابنه فيقول له: سأشتري لك كذا وكذا، فيكتب كذباً" .

وقال إبراهيم التيمى: " إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر، فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً" (١) .

قال ابن القيم: وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها

---

(١) وقاية الإنسان من الجن والشيطان ص ٢٦٢ .

obeikandl.com

مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة (١).

وها هو النَّبيّ ﷺ يضرب هنا أروع الأمثلة في التورع عن فضول الكلام.

فقد ذكر الفائدة دون التعرض لتفاصيل العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر، فقال كان ملك فيمن كان قبلكم، ولم يذكر اسم هذا الملك، ولا في أي زمان كان، ولا في أي البلاد وقعت هذه القصة، ولكنه عمد إلى سرد الوقائع الهامة ذات الدلالة في القصة، وأعرض عن التفاصيل التي لا يترتب على معرفتها عمل.

وفي ذلك درس للمتكلم والمستمع :

فعلى المتكلم ألا يكثر من الثرثرة بما لا يفيد، وعليه أن يذكر ما يدل على المطلوب بأقل لفظ، وأوضح عبارة، فمن الناس من إذا سألته أين كنت ؟ سرد لك قصة طويلة، فقد خرج من البيت ساعة كذا، وقابله فلان، وركب سيارة كذا، وكان سائقها يفعل كذا وكذا، ووصل إلى مكان كذا، ويظل يسرد تفاصيلاً لا طائل من سردها، ثم يختتم كلامه ببيت القصيد قائلاً: وكنت ذاهباً لمقابلة فلان ولم أجده، وفي النهاية ينتبه إلى أن السائل قد نام أثناء الكلام ! .

وعلى المستمع أن لا يسأل عما لا يفيد، ولا يترتب عليه عمل، أو جزاء أو عقاب، فمن الناس من يسأل حال الكلام عن قصة نوح و ما اسم زوجته ؟ ، ومنهم من إذا ذكرت قصة أهل الكهف سألك عن اسم الكلب ! والأمثلة تنأى عن الحصر. وهذا من المراء المنهي عنه.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: « **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان**

---

(١) بدائع الفوائد ٣ / ٥٠٣ .

مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »[١].

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ : وحد المراء هو : كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم[٢].

فالمراء هو صرف المتحدث عن أصل حديثه بما لا يفيد، وهذا ما حدث مع النَّبيّ ﷺ عندما ذكر قصة أهل الكهف سأله المشركون عن عددهم، هو يذكرها لهم ليعتبروا بما حدث لهم، وببعثهم ونشورهم بعد نوم طال زمناً حتى صار كالموت، ولكنهم ما اقشعر جلدهم من عظم آيات الله ، وراحوا يسألون عن عددهم فحذره ربه من الانسياق وراءهم فقال: ﴿ **سيقُولُون ثلاثَةٌ رَابعُهُمْ كَلْبُهُمْ ويَقُولُون خَمْسَةٌ سادسُهم كَلْبُهُم رجْماً بالْغَيْب ويَقُولُون سبْعَةٌ وثَامنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَبّي أَعْلَمُ بعدَتهم مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَليلٌ فلا تُمَار فيهم إلاَّ مرَاءً ظَاهراً ولا تَسْتَفْت فيهم منْهُمْ أحدا (٢٢)** ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فما أجاب على سؤالهم تصريحاً ولكن ألمح لهم بالإجابة عسى أن يهتدي إليها منهم أحد[٣] .

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود برقم ٤٨٠٠، والطبراني في الكبير برقم ٧٤٨٨، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٨٠١٧ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٤٦٤ ، وصححه النووي في رياض الصالحين ٣٦٥ .

(٢) الإحياء ٣ : ٧٥ ، وقاية الإنسان ص ٢٦٥ .

(٣) إن المدقق في ألفاظ هذه الآية يجد أن الله قد ذكر عددهم تلميحاً بغير تصريح فقد عرض ـ عز وجل ـ أقوالهم في عدد أصحاب الكهف بأسلوب رفيع، وأتبع كل قول بتعليق دقيق ، فمن فهم هذا العرض وهذه التعليقات اهتدى لعددهم، وإليك البيان فقد قال تعالى: ﴿ **سيقُولُون ثلاثَةٌ رَابعُهُمْ كَلْبُهُمْ ويَقُولُون خَمْسَةٌ سادسُهم كَلْبُهُم رجْماً بالْغَيْب** ﴾ فهو جل شأنه يتكلم عن أهل الكهف وهم أولياؤه وأصفياؤه، وفي هذا الذي قالوه تنقيص لهم، لأن إضافة الكلب للعدد في المرتين تنقيص، لأنهم لما جعلوا الكلب في جملة عددهم، جعلوهم والكلب في منزلة واحدة، ولما كان هذا الكلام لا يليق بأوليائه عقب قائلاً: ﴿ **رجْماً بالْغَيْب** ﴾ ومعنى ذلك أن عددهم لم يكن ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة، ثم قال تعالى: ﴿ **ويَقُولُون سبْعَةٌ وثَامنُهم كَلْبُهم** ﴾ فذكروا عددهم، وعطفوا الكلب عليهم بحرف الواو التي يقول عنها بعض العلماء: هي واو الثمانية، وهنا استخدمت هذه الواو للفصل بين جنس أولياء الله ، وجنس الكلب تنزيهاً لهم، ورفعة للكلب لما صحبهم، ولذلك عقب جل شأنه على هذا الكلام بقوله: ﴿ **قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل** ﴾ وفي هذا التعقيب إشعار ضمني بالرضا بهذا القول، وبهذا يعلم الفطن اللبيب أن عددهم سبعة، وليسوا بثمانية.

همسة :

أهمس في أذن كل داعية إلى الله ـ عز وجل ـ ألا ينساق حال كلامه خلف المارين، فإذا اعترضه أحدهم بسؤال، فمن الوجاهة ألا يدع صلب كلامه وينعطف خلفه في منعطفات مظلمة، ومنها أيضاً ألا يرد عليه بإجابة صريحة، ولكن يُعرِّض له بكلام فيه الإجابة، ويدعه يفكر فيها، عل ذهنه الخامل أن يتوقد، لعل سطحيته أن تتحول إلى النظر في دقيق العلم، والله الموفق.

لطيفة :

معظم العلماء فسر المراء بالجدال والجدال بالمراء في مواطن كثيرة، ولكن هناك فارقاً بينهما ألا وهو: المراء كما سبق تعريفه هو صرف المتحدث عن أصل حديثه بما لا يفيد .

أما الجدال فقد عرفه الإمام ابن الأثير فقال: الجدَل: مُقابَلة الحُجَّة بالحجَّة. والمُجَادَلَةُ: المُناظَرةُ والمخاصَمة [١].

فالجدل يكون بين اثنين لكل منهما حجته، وكل منهما متمسك بما لديه، ولا يقبل وجهة نظر الآخر، وحال تقارعهما بالحجة كحال من يفتل حبلاً له طرفان، كل منهما يلتف حول الآخر ليحتويه؛ ولذلك قال ابن منظور في لسان العرب: الجَدْل: شِدَّة الفَتْل. وجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلاً إِذا شددت فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلاً مُحْكَماً؛ ومنه قيل لزمام الناقة الجَدِيل [٢].

والجدال نوعان:

الأول: يكون بين اثنين كلاهما على باطل، أو فيما لا يفيد، كالجدل في أهل الفن، واللعب، أو في القيل والقال، وما لا طائل من الكلام فيه، وهذا لا

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١ / ٧٠٧ .
(٢) لسان العرب ١١ / ١٠٣ .

يجوز وقد يحرم بحسب موضوع الجدال، وأسلوبه، والألفاظ المستخدمة.

الثاني: يكون بين اثنين أحدهما على حق والآخر على باطل، فمن كان على الحق إن رأى أن الآخر يقبل الحق جادله وأقام له الحجة والبرهان لقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وإن كان ممن لا يقبل الحق فترك الكلام معه أولى.

والمراء أيضاً على درجتين:

الأولى: أن يكون المعترض غرضه إحراج المتكلم، ومنعه من مواصلة حديثه، فهذا لا يُلتفت إليه، ولا يجوز الرد على سؤاله، وترك الكلام معه أولى كما في الحديث، لأن الرد سيكون انتصاراً للنفس.

والثانية: أن يكون عن ضعف علم، وقلة إدراك، وهذا يُتَّبع معه ما سبق بيانه،وهذا هو المراء الظاهر الذي دل الله ـ عز وجل ـ عليه النَّبيَ ﷺ حيث قال له: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف : ٢٢] . والله أعلم.

الدرس الثاني: البطانة :

ما من أحد يتولى أمراً من أمور السلطان؛ في أي مكان أو زمان إلا قيض الله له بطانة، هم وزراؤه ومستشاروه،الذين يرجع إليهم ليستشيرهم في تسيير شئون سلطانه.

وسماهم الله ـ عز وجل ـ : (الملأ) .

يقول ابن منظور: والمَلأُ :الرُّؤَساءُ، سُمُّوا بذلك لأَنهم مِلاءٌ بما يُحتاج إليه، والمَلأُ، مهموز مقصور: الجماعة، وقيل أَشْرافُ القوم ووجُوهُهم (أى: وجهاؤهم) ورؤَساؤهم ومُقَدَّمُوهم، الذين يُرْجَع إِلى قولهم [١].

---

(١) لسان العرب ١ / ١٦٠ .

ويقول الراغب الأصفهانى: الملأ: جماعة يجتمعون على رأي، فملؤون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦] (١).

وهذه البطانة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: يحضه على الخير ومرضاة الله ـ عز وجل ـ .

والثانى: يدفعه إلى الشر ومعصية الله ـ عز وجل ـ .

والسعيد من وفقه الله لمشورة القسم الأول، ووقاه شر القسم الثاني، والشقي من وكله الله إلى القسم الثاني، وبغض إليه القسم الأول، ليذوق وبال أمره.

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً ومن يوق بطانة السوء فقد وُقى**» (٢).

وهذا التوفيق إلى إحدى البطانيتين متوقف على طريقة وصوله إلى سلطانه فإن وصل إليه بصالح عمله وتزكية غيره له وبدون طلبه، أو السعي إليه وفقه الله إلى البطانة الأولى وأعانه على تسيير سلطانه إلى ما يحبه ويرضاه.

أما إن سعى إلى الحصول على السلطان وخطط ودبر للحصول على هذا المنصب وكَّله الله ـ عز وجل ـ إلى ما سعى إليه وسلط عليه بطانة السوء وذلك لما ورد عن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال: قال لي النَّبيﷺ: «**يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها**

---

(١) مفردات القرآن ١ / ٦١٢ .

(٢) الترمذي برقم ٢٣٦٩ وقال حديث حسن صحيح غريب، والنسائي برقم ٤٢٠٣، وأحمد برقم ٧٢٣٨ وقال الأرنؤوط صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان برقم ٦١٩١، والطبراني في الأوسط برقم ٢٩٦٧، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٠١٠٤ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٦٤١، وفي صحيح الجامع برقم ١٨٠٥

خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأت الذي هو خير » [١] .

فتوفيق الله له أو إيكاله إياه مترتب على إجابة سؤال مهم ألا وهو: هل سعى إلى السلطة أم سعت هي إليه ؟.

والسعي إلى السلطة يكون بالتخطيط، والتدبير، والعمل، أو حتى بالتمني ، فالأماني قد تدفع الإنسان إلى ما لا يُحمد عقباه.

شبهة ورد ها :

يحتج البعض على طلب السلطان بقول يوسف عليه السلام لملك مصر: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف: ٥٥] . وقالوا : لقد طلب يوسف عليه السلام السلطان.

وإن الناظر بعين الاعتبار ليجد أن الأمر خلاف ما توهموا فقد قال الله على لسان الملك: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف : ٥٤] .

أي أن الملك لما رأى من شدة أمانته استدعاه لاصطفائه فلما حضر عليه السلام عرض الملك الوزارة عليه وفتح أمامه الباب على مصراعيه وقال له: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ، ومعنى ذلك أن الوزارة قد جاءت ليوسف عليه السلام وهي راغمة وما خطر بباله لحظة أن الملك يستدعيه ليجعله وزيراً، ومن أمانة يوسف عليه السلام أنه عرض على الملك أن يجعله وزيراً للخزانة لأنه متصف بالحفظ والعلم وهاتان صفتان تؤهلانه لشغل هذا المنصب دون غيره : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف : ٥٥] .

ونخلص من ذلك إلى أن السلطة سعت ليوسف عليه السلام ولم يسع هو إليها

---

(١) البخاري برقم ٦٢٤٨ ، ٦٣٤٣ ، ٦٧٢٧ ، ٦٧٢٨ ، ومسلم برقم ١٩ / ١٦٥٢ ، والترمذي برقم ١٥٢٩ ، والنسائي برقم ٥٣٨٤ ، وأحمد برقم ٢٠٦٣٧ ، وابن حبان برقم ٤٣٤٨ ، ورياض الصالحين برقم ٦٧٤ .

ولكنه أرشد الملك إلى ما فيه مصلحة البلاد والعباد وكان أن وفقه الله وعبر بالبلاد إلى بر الرشاد حين حلت الأزمة طوال سبع سنين عجاف ، والله تعالى أعلم.

والبطانة الصالحة ليس لها هدف إلا تعبيد الناس لله وتحكيم شرع الله في رقاب الرعية فهم يريدون صلاح الأمة في الدنيا والآخرة.

أما بطانة السوء فيهمها في المقام الأول المصلحة الشخصية وإبعاد الناس عن دين الله ، فبالدين ينمو العقل ويتبين للناس الفاضل والمفضول لأن الحق أبلج أوضح من شمس النهار ، فهم دائماً يحاولون إبعاد الناس عن دين الله ـ عز وجل ـ بشتى السبل ومن ثم تستقر بهم الكراسي ، فكراسيهم أحب إليهم من الله ورسوله ﷺ.

وتسلك بطانة السوء في كل زمان ومكان أساليب شتى للوصول لأغراضها الخبيثة، من أهم مسالكهم مسلكين ذكرهما الله ـ عز وجل ـ يصف بطانة فرعون ـ عليه من الله ـ عز وجل ـ ما يستحق ـ وهم السحرة فقال فيهم جل في علاه: ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] .

ففي هذه الآية يوضح الله ـ عز وجل ـ هذين المسلكين وهما: الأول : قلب الحقائق ، والثاني: إرهاب الرعية، وإليك تفصيل هذين المسلكين في ضوء الكتاب والسُّنَّة المطهرة.

المسلك الأول : قلب الحقائق :

يقول الله ـ عز وجل ـ في هذا الشأن : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ .

أي أنهم ملكوا حواسهم وقلبوا لهم الحق باطلاً والباطل حقاً، وفي ذلك الزمان الغابر استخدموا السحر الحقيقي في تضليل الناس، أما في هذا الزمان فاستُخدِم نوعٌ آخر من السحر ألا وهو سحر البيان، فللكلام ونظمه ورونقه ورصانته في النفوس تأثير لا يقل بحال عن تأثير السحر في الأجساد؛ ولذلك

ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ :«**إن من البيان لسحراً ـ أو ـ إن بعض البيان لسحر**» (١) .

المسلك الثاني : إرهاب الرعية :

هذا المسلك أشار إليه رب العزة في الآية السابقة حين قال : ﴿ واسترهبوهم ﴾ ويلجأون إليه حال تيقنهم أن المسلك الأول عديم الجدوى، ولا يستخدمونه مع كل الناس، ولكن يستخدمونه مع فئة معينة منهم؛ ألا وهم الدعاة إلى الحق، وفيه يتبعون أساليب شتى؛ للوصول إلى غايتهم المنشودة؛ بأن ينساق الناس خلفهم، مذعنين، طائعين، خائفين،لا يلوون على شيء، ومن أهم هذه الأساليب ما يلى :

[١] الاحتواء :

حتى لا يقوم الدعاة بتأليب الناس على مناهج البطانة العفنة، تحاول بطانة السوء في أول الأمر أن تحتوي الدعاة والمصلحين لينضموا تحت رايتهم، ولهم في ذلك طريقتين :

الأولى: الإيثار بالجميل :

في بداية الأمر تلطف فرعون مع موسى عليه السلام قائلاً له ممتناً عليه : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [العشراء : ١٨ ـ ١٩] ، وهذا من باب الإيثار بالجميل، فلسان حاله يقول: هل ترد الإحسان بالإساءة ؟ ، فقد ربيتك في بيتي عمراً مديداً، تنعمت فيه بشتى أنواع النعيم ، بل الأكثر من ذلك أنك قتلت نفساً ثم رجعت إلينا فلم نقتص منك وأبقيناك حياً ، ثم تأتي الآن لتطعنني في ظهري وتُقيِّض ملكي بدلاً من أن تعترف بجميل صنعي إليك .

(١) البخاري برقم ٤٨٥١ ، ٥٤٣٤ ، ومسلم برقم ٤٧ / ١٦٩ ، والترمذي برقم ٢٠٩٧ وأبو داود برقم ٥٠٠٧ .

فمن كانت دعوته لله ـ عز وجل ـ لا تنطلي عليه مثل تلك الحيل، ويمضي في طريقه لا يهزه اللعب بالمشاعر والأحاسيس، أما من كانت دعوته لغرض دنيوي ينساق وراءهم حتى يُهلكوه في الدنيا ويقحموه في نار جهنم في الآخرة.

الثانية: إضفاء الشرعية:

فإن لم تفلح الطريقة الأولى يصفون طريقته بأنها نفس طريقتهم؛ حتى يشككوه في نفسه أولاً، ويشككوا الناس فيه ثانياً، فها هو الملك يقول للغلام: "أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل!"، رغم أن الملك يعلم جيداً أن ما جاء به الغلام ليس بسحر، إلا أنه يريد أن يوهم الغلام بأن الطريق واحد، وقد يكون الاختلاف ظاهرياً، فلا داعي لتأليب الناس، وإفساد المملكة، وتهييج الرعية، فإن أقر الغلام ضاع، وضاعت الرعية، وإن تمسك بالحق انتقل أهل الضلال إلى المسلك التالي:

[٢] الاتهـــام:

لما لم تفلح الطرق السلمية في رد الدعاة والمصلحين إلى حظيرة الفساد؛ تبدأ بطانة السوء في الكشف عن وجهها القبيح، فتعمل على تلويث سمعتهم؛ بأن يتهمونهم بأشنع تهم، ويصفونهم بأسوأ صفات،ويسبونهم بأقذع سباب،حتى ينفض الناس من حولهم،ومن أهم الاتهامات التي كانوا يتهمون بها أهل الحق ما يلي:

﴿ أ ﴾ السحر:

غريب أمر أهل الباطل في كل زمان ومكان، فرغم أن فرعون يسيِّر ملكه بالسحر، إلا أنه يصف من يقف على الجهة المقابلة له بالسحر ﴿ **قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)** ﴾ [الشعراء : ٣٤]، وفي هذا دلالة على شناعة السحر حتى بالنسبة للذين يتعاطونه، والعجيب أن بطانته تردد نفس الكلام: ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)** ﴾ [الأعراف : ١٠٩]، وفي ذلك

تنزيه لأنفسهم عن القيام بأعمال السحر، واتهام موسى عليه السلام به، لعلمهم أن النفوس تقبِّح السحر وتبغض السحرة، ولكن لما علموا أن الناس قد فطنوا إلى أن موسى عليه السلام ليس بساحر بدأوا يتهمونه بما هو أعظم من السحر ألا وهو:

﴿ ب ﴾ الجنون:

فتوجه فرعون إلى الرعية: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء : ٢٧] ، ويا لها من تهمة، فليس بعد ذهاب العقل بقاء للإنسان، فبه كرمَّه الله ـ عز وجل ـ وفضَّله على العالمين، فسلبه فرعون أعز ما يملك أمام العامة حتى لا يتبعوه، ولكن لما رأى أن الناس لا تنطلي عليهم تلك التهمة السمجة تحول إلى تهمة أخرى ألا وهي:

﴿ جـ ﴾ المقارنة التنقيصية:

ذكر أهل التفسير أن موسى عليه السلام في بداية حياته تناول جمرة في فمه فأثرت على طلاقة لسانه؛ ولذلك طلب من ربه ـ عز وجل ـ أن يرسل معه أخاه هارون قائلاً: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ [القصص:٣٤] ، فاستغل فرعون هذا العيب ـ من وجهة نظره ـ وبدأ يعقد مقارنة بينه وبين موسى عليه السلام للعامة حتى يتخيروا من يتبعون فقال لهم: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)﴾ [الزخرف : ٥٢] ، فالسذج آثروا فرعون وما له من صفات كريمة على موسى عليه السلام وما به من صفات مهينة ـ من وجهة نظرهم ـ فوقعوا في شراك فرعون وكانوا من حزبه .

وما أكثر التُهم التي يُتهم بها أهل الحق في كل زمان ومكان، فلكل زمان ما يناسبه من تهم تتماشى مع طبيعة العصر، وأهواء أهل الباطل، ووعي العامة، فوصِفوا في زماننا بأنهم إرهابيون متطرفون متزمتون رجعيون ظلاميون.

وأما ذوو العقول الراجحة اتبعوا موسى عليه السلام فانتقلوا بهم إلى المسلك التالي:

[٣] التهييـــج :

هناك حكمة عند أهل الباطل تقول : " من لم تستطع أن تقتله وهو يقظ ، انتظره حتى ينام، ومن لم تستطع أن تضربه بعصاك فاضربه بعصا غيرك" وهذا ما فعله فرعون مع موسى عليه السلام وأتباعه، فرغم كل ما فعله مما سقته إليك إلا أن أتباع موسى عليه السلام يزيدون، فحاول أن يزرع الفتنة بينه وبين الناس ﴿ قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ (٣٤) يُريدُ أن يُخرجكُم مّن أرضكُم بسحره فماذا تأمُرون (٣٥) ﴾ [الشعراء : ٣٤ ـ ٣٥] ، فالناس بطبعهم يحبون الاستقرار والسكينة، ورغد العيش، ويكرهون من يحاول أن يمس استقرارهم، ويضيق عليهم معايشهم، فلعب فرعون على هذا الوتر، وقال لهم : إن موسى عليه السلام يريد أن يخرجكم من أرضكم، ويشرد أبناءكم، فهو عدوكم الأول، ولابد من الخلاص منه، فماذا تأمروني أن أفعل به ؟ .

وهذه المشورة يستفيد منها فرعون بجملة أمور هي:

- يُشعر الناس بأن موسى عليه السلام عدوهم الأول فهو ساحر يخطط لإخراجهم من ديارهم.
- بهذه المقدمة يريد فرعون أن يستخلص منهم أقسى أنواع العقاب لموسى عليه السلام ومن معه.
- يُشعر الناس بأنه لا يفعل إلا ما يرضيهم، وفي هذا رفعة لشأنهم واستمالة لقلوبهم.
- أنه لن يجد له معارض إذا تخلص من موسى عليه السلام .

ولابد أنه قد استمال السذج من الناس؛ الذين هم في حقيقة الأمر همج رعاع ؛ يتبعون كل ناعق، ولكن نبرة الحوار قد ازدادت سخونة، فبعدما كانت مجرد استمالة، ثم تقبيح، دخلت مرحلةً جديدةً؛ ألا وهي التلويح بالعنف واستخدامه لحسم الموقف.

[٤] التهديد :

بدأ فرعون يخرج من عباءة الوقار، وبدأ يرغى، ويزبد، ويتوعد كل من اتبع موسى عليه السلام بالويل والثبور، وعظائم الأمور، فبعدما آمن السحرة قال لهم على سبيل التهديد :﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعين (١٢٤) ﴾ [الأعراف : ١٢٤] .

وذلك ليتراجعوا عن دينهم، فهناك نفوس ضعيفة قد تتراجع لمظنة وقوع التهديد؛ وهذا من سوء الظن بالله ، ولكن السحرة لما علموا الحقيقة تمسكوا بربهم؛ وما رضوا بغيره بديلاً فـ : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾ [طه : ٧٢ ـ ٧٣] .

[٥] السجن :

بدأ فرعون يصعِّد من لهجة التهديد مع موسى عليه السلام ، ويظهر خبث ما يدعو إليه فـ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ [الشعراء : ٢٩] وأظهر ما كان يخفيه في بادىء الأمر؛ من اختلاف في المنهج، وصرح بأن موسى عليه السلام ، يدعو إلى اتخاذ إله غيره ولو تمادى في ذلك فسيكون مآله السجن.

[٦] التعذيب :

وهو أمر واضح على مر العصور والدهور، فما من داعية يدعو إلى الله على بصيرة إلا وتفنن أهل الباطل في أن يذيقوه صنوفاً من ألوان العذاب حتى يردوه إلى باطلهم، والقصة التي بين أيدينا أوضح مثال على ذلك فها هو جليس الملك يحفر له الحفرة ويدفن إلى منتصفه فيها ثم يمشط بأمشاط من حديد ويُشق بالمنشار نصفين، وكذلك فُعل بالراهب ولكن الإيمان كان في قلبيهما أثبت من

الجبال الرواسي فنالا بذلك رضى الله ـ عز وجل ـ في الدنيا والآخرة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد عُذِّب أشد العذاب وأُوذي هو وأصحابه ولو تتبعنا ما جرى لهم مع أهل الضلال لما وسعنا مجلدات، وكذلك في سير التابعين وتابعيهم بإحسان مواقف حافلة بين أهل الحق وأهل الباطل بذل فيها أهل الحق النفس والنفيس ثمناً زهيداً لإعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ فنصرهم الله على عدوه وعدوهم في الدنيا والآخرة.

[٧] التحطيم النفسي :

ويكون ذلك بإذلال أهل الداعية إلى الله وتعذيبهم؛ حتى يصل الأمر في بعض الأحيان إلى قتلهم أمام عينيه ليرجع عن دينه شفقة عليهم من التعذيب والقتل، وها هو فرعون يلجأ هو وبطانته إلى هذه الطريقة حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وقال أيضاً: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) ﴾ [غافر :٢٥] .

وفي هذه الطريقة فوائد لأهل الباطل من أهمها:

[١] ألا يحاول أحد من أهل الداعية أن يتمثل به أو يفعل مثله.

[٢] عل هذه الطريقة أن تثني الداعية عن وجهته خوفاً على ذويه وقرابته.

[٣] قطع الصلة بين الدعاة ومن لم تثبت قدمه على الحق لأنه يخشى أن يحصل له ما حصل للداعية وأهله.

[٨] التصفية الجسدية :

وهذه لا يلجأ إليها أهل الطغيان إلا بعد استفراغ الجهد فيما سبق من وسائل

ليس حرصاً منهم على حياة الدعاة ولكن لأمرين ،الأول: خوفهم من هياج أتباع الدعاة عليهم فيقع ما لا يُحمد عقباه، والثانى: في اثناء الداعية عن دعوته مكسب عظيم أعظم من موته على دعوته فرجوعه وتخاذله موت لدعوته واندثار لأتباعه أما في موته على ما دعا إليه حياة لأتباعه،ومن ثم دعوته من بعده، ولذلك لم يُصرح فرعون بقتل موسى عليه السلام ولكنه لوح بذلك ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ [غافر :٢٥] .

فإن لم يرتدع الداعية ومضى في طريقه اضطروا آسفين إلى إنهاء حياته والأمثلة على ذلك كثيرة فقد نُشر زكريا عليه السلام بالمنشار، واهديت رأس يحيى عليه السلام لبغي من بغايا بني إسرائيل، وكان عيسى عليه السلام في طريقه إلى الصلب لولا أن نجاه الله ورفعه إليه، وفي قصتنا هذه قُتل جليس الملك وكذلك الراهب والغلام على يد أهل الضلال ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٨) ﴾ .

[البروج :٨] .

الدرس الثالث : رؤوس الطواغيت :

يقول الشيخ / ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

نرى هنا التعاون بين رؤوس الطواغيت على نشر الفساد في الأرض فالذي يحكم بغير ما أنزل الله،ويدَّعي لنفسه صفة الحكم من دون الله طاغوت ـ وكلهم يدعي الربوبية لمن تحته من الناس بعضهم بلسان المقال كهذا الملك وفرعون والنمرود ـ وأكثرهم يدعيها بلسان الحال حين يفرض على الناس طاعته في تشريع يخالف شرع الله ،كأكثر طواغيت اليوم، وما أكثر من يستجيب لهم.

والساحر الذي يدعي ملك الضر والنفع أو يقلب الأمور ويغير الخلق أو تقليب القلوب على الحب والبغض وفق ما يريد هو أيضاً من الطواغيت ولقد

ثبت في الصحيح ـ اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله والسحر ..... ـ الحديث [١] وثبت قتل الساحر عن ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم واختلف العلماء في كفر الساحر فمنهم من كفره مطلقاً كمالك وأبي حنيفة وأحمد ومنهم من فصل كالشافعي فمن كان سحره متضمناً بكفر كُفِّر وإلا فلا يكفر إلا أن يستحله [٢] .

(١) جزء من حديث رواه البخاري برقم ٢٦١٥ ، ٥٤٣١ ، ٦٤٦٥ ، مسلم برقم ١٤٥ / ٨٩ ، وأبو داود برقم ٢٨٧٤ ، والنسائي برقم ٣٦٧١ ، وابن حبان برقم ٥٥٦١ والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٨٤ ، ورياض الصالحين برقم ١٦١٤ .

(٢) قصة أصحاب الأخدود ص ٨ ، ٩ وعلق الشيخ على الجملة الأخيرة بقوله: "وهذا التفصيل هو الراجح" أقول: "لمعرفة القول الفصل في مسألة هل يكفر الساحر أم لا ؟ وما يترتب عليه من وجوب قتله من عدمه ارجع، إلى كتاب لمؤلفه بعنوان «مرض السحر» بسطت فيه القول في هذه المسألة ، وهذا الكتاب من مطبوعات دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع بالإسكندرية .

obeikandl.com

الوقفة الثانية

[فلما كبر قال للملك: " إني قد كبرت فابعث لي غلاماً أعلمه السحر "] :

الدرس الأول: حرص أهل الشر على نشر شرهم :

هنا نجد حرصاً غريباً من الساحر على نشر سحره رغم علمه بأنه شر كله ، فلما أحس بدنو أجله عز عليه أن يفارق الدنيا دون أن يحمل الرسالة من بعده غيره ، فطلب من الملك أن يبعث إليه غلاماً ليعلمه السحر، ولك أن تتخيل رجلاً بلغ من العمر أرذله يتحامل على نفسه ليُعلِّم السحر لذلك الغلام، فأين أهل الحق من هذا المثال العجيب ؟ وهل حرص أهل الحق على توريث الحق لمن بعدهم كما حرص هذا الساحر على توريث باطله ؟ ، وأين شباب الصحوة الكسالي من هذا العجوز المتهالك الهالك النشيط ؟ .

يقول الشيخ ياسر برهامي - حفظه الله - :

عجباً لأمر هؤلاء الطواغيت، لا يؤمنون بآخرة ولا ببعث ولا يرجون حياة بعد الموت ولا أجراً ولا ثواباً ومع ذلك يحرصون على استمرار الشر من بعدهم ويخافون من ضياعه بعد مماتهم، فلحساب من يعملون ؟ ولماذا يسعون إلى تنشئة الأجيال الجديدة على مثل باطلهم ؟ إن اتباع الشهوات والرغبة العاجلة في التلذذ بها في الدنيا يفسر لنا ما يقومون به في حياتهم ولكنه لا يفسر لنا رغبتهم في بقاء الشقاء على البشر بعد وفاتهم، والحق أنهم يعملون في الحقيقة لحساب عدو الإنسان الأول ورأس الطواغيت كلها - الشيطان - الذي يوحي إليهم بتلقين الضلال للأجيال القادمة ليحصل له غرضه الخبيث الذي بينه لنا رب

العالمين بقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر : ٦] (١) .

وبالإضافة إلى هذا السبب هناك سبب آخر غاية في الأهمية ألا وهو أن أهل الشر يحقدون على أهل الحق ولا يريدون لهم الخير مطلقاً فها هو أستاذهم إبليس عليه من الله ـ عز وجل ـ ما يستحق من اللعنات عندما علم أن الله قبل توبة آدم لم يتأس به ويبتهل إلى الله ـ عز وجل ـ كي يغفر له ذنبه بل سعى لشقاء نفسه وشقاء من هم على شاكلته فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص ٧٩ ـ ٨٣] .

فلم يطلب من الله ـ عز وجل ـ أن يُنظره ليتوب ويعود إلى رشده، ولكن ليفسد على آدم عليه السلام وذريته علاقاتهم بربهم حتى يتساوى الجميع في معصية الله ـ عز وجل ـ وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) ﴾ [النساء : ٨٨ ـ ٨٩] .

وكما قيل: " ودت الزانية لو أن كل النساء زنين" وذلك حتى لا يتمايز عليها أحد في الدنيا ولا يتفاضل عليها أحد في الآخرة.

الدرس الثاني: فائدة التعلم في الصغر :

طلب الساحر من الملك أن يبعث له غلاماً حدثاً صغيراً ولم يطلب منه رجلاً

(١) قصة أصحاب الأخدود ، ص ١١ .

يافعاً وذلك لأن التعلم في الصغر أثبت وأرسخ وذلك لأن عقل الطفل مازال ناصعاً كورقة بيضاء وما يُكتب فيها أولاً يكون أكثر ثباتاً.

وفي ذلك روى ابن عبد البر بسنده عن الحسن أنه قال: طلب الحديث في الصغر كالنقش على الحجر.

وروى بسنده عن علقمة أنه قال: " ما حفظت وأنا شاب كأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة "

وروى بسنده عن الحسن بن عليّ قال لبنيه وبني أخيه: تعلموا العلم، فإنكم صغار قوم وتكونون كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب.

وأورد عن سابق البربري ـ رحمه الله ـ أنه قال:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل ... وليس ينفع عند الكبرة الأدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قومته الخشب

وعن أبي عبد الله نفطويه قوله:

أراني أنسى ما تعلمت في الكبر ... ولست بناسٍ ما تعلمتُ في الصغر
وما العلم إلا بالتعلم في الصبا ... وما الحلم إلا بالتحلم في الكبر
ولو فلق القلبَ المعلمُ في الصبىّ ... لألفي فيه العلم كالنقش في الحجر

وبسنده عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: " يا بني ابتغ العلم صغيراً، فإن ابتغاء العلم يشق على الكبير " (١).

وفي ذلك يقول الحسن البصرى: " قدِّموا إلينا أحداثكم (أي صبيانكم)، فإنهم أقرع (أى: أنقى) قلوباً وأحفظ لما سمعوا " .

وقديماً قالوا: " الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر والحفظ في الكبر كالرقم على الماء (أي الكتابة على الماء) " (٢).

---

(١) جامع بيان العلم ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) الوسائل المعينة على حفظ القرآن الكريم ص ١٧ .

فلذا على كل أب يرجو الله واليوم الآخر أن يعلم ابنه منذ نعومة أظفاره ما يقربه من ربه ويغرس ذلك في نفسه بأن يكون كل همه مرضاة الله ـ عز وجل ـ وطاعة نبيه ﷺ ، وعلى الدعاة إلى الله أن يأخذوا بيد من بانت فطنته في صغره ، ويصقلوا موهبته عسى أن يكون الخلاص على يديه .

الدرس الثالث : التربية التربية :

يقول الإمام الغزالي: " والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، خالية من كل نقش فإن عُوِّد الخير نشأ عليه، وإن عُوِّد الشر وأهمل شقي وهلك " (١).

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

وتأمل قول الساحر (فابعث لي غلاماً) لتعرف كيف يهتم الأعداء بالأبناء، ولماذا يحرصون على إفسادهم منذ نعومة أظفارهم ؟ ، فهو لم يطلب رجلاً كبيراً ـ بل طلب غلاماً ـ فإن من شبَّ على شيء شاب عليه، لذا نرى دائماً أعوان الشيطان يُركِّزون على أمر التعليم خاصة في الصغر، وعلمنا من التاريخ كيف يختارون الأذكياء من أبناء الأمة وشبابها الصغار، وينقلونهم إلى بلادهم ليتربوا على أعينهم، وليكونوا صنيعة لهم إذا عادوا وليقودوا الناس لهم بالسحر الحديث كقطيع غنم بلا حديد ولا نار، فأين المسلمون من مسئولية تعليم أبنائهم دين الله وقد علموا ما أراده أعداؤهم وما قد وضعوه لهؤلاء الأبناء من مناهج تعليم الفساد والمنكر وقلب الحقائق، وبغض الخير وتمييع الدين لينشأوا على الكفر والنفاق ؟ أين المسلمون من هذه المسئولية وقد علموا قول نبيهم ﷺ : « **مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر** » (٢) ؟ ، لابد لنا هنا من دور

---

(١) الوسائل المعينة على حفظ القرآن الكريم ص ١٦ .

(٢) **صحيح** : رواه أبو داود برقم ٤٩٤ ،والترمذي برقم ٤٠٥ وقال حديث حسن ، ورياض الصالحين برقم ٣٠٢ وصححه الالباني في إرواء الغليل برقم ٢ / ٢٩٨ .

هائل وعظيم يرتكز على قلع أشجار الباطل وحماية الأبناء منها وغرس أشجار الحق في قلوب طلائع أمتنا وصغارها،ولا يظن أحد الأمر مستحيلاً أمام إمكانيات الباطل الهائلة فإن شجرة الباطل سهلة الاجتثاث وشجرة الحق تقيها فطرة الإنسان فترسخ في قلبه ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ﴾ [إبراهيم :٢٤ ـ ٢٥] ، وهذه القصة التي بين أيدينا من أوضح الأدلة على ما نقصد إليه فإن إمكانيات الملك ودولته وساحره وأعوانه كانت مجندة لإعداد هذا الغلام لوظيفة (ساحر الملك) والأجواء مهيأة لذلك أعظم تهيئة ولكن صوت الحق الذي كان خافتاً خائفاً كان أعلى وأعمق أثراً بل كان سبباً في نقل أمة بأكملها من الظلمات إلى النور فيا أيها المسلمون أبناءكم وغلمانكم أنقذوهم من أيدي سحرة العصر الحديث [١].

الدرس الرابع: السحر علم :

السحر علم له أصول وضوابط وقواعد وأسس قائمة على الكفر بالله ونعمه وامتهان آياته وتحديه ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وهناك من الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على أن السحر علم ومن أهمها ما يلى:

[١] يقول الله تعالى: ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون (١٠٢) ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

(١) قصة أصحاب الأخدود ص ١١ – ١٣ .

فما من عملية تعليمية إلا وتقوم على أربعة أسس هى: المعلم، والمتعلم، والمنهج المراد تعليمه، والهدف من هذا العلم، وهذه الأسس قد ذكرها الله في هذه الآية وتفصيلها كما يلى:

﴿ أ ﴾ المعلم والمتعلم والمنهج ،ذكرها الله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فالمعلم: الشياطين، والمتعلم: الناس (السحرة)، والمنهج: السحر.

﴿ ب ﴾ والمعلم هو أعلم الناس بما يقوم بتعليمه ولما كان السحر كفراً يحذِّر (المعلم) من تعلمه (التلميذ) من مغبة تنفيذه، وما يقول له ذلك إلا بعد أن يتشرب السحر في قلبه وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ .

﴿ جـ ﴾ وقد ضرب الله مثالاً لما يتحقق بهذا العلم، وهو هدف من جملة أهدافه، ألا وهو التفريق بين المرء وزوجه في قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ .

﴿ د ﴾ ثم يبين الله ـ عز وجل ـ مآل من يتعلم هذا العلم في الدنيا والآخرة فيقول تعالى: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ .

[٢] في القصة التي بين أيدينا يطلب الساحر من الملك أن يرسل له غلاماً يعلمه السحر وينفذ الملك ذلك ويمكث الغلام فترة من الزمن يتردد على الساحر يتلقى منه علوم السحر.

وفي هذه القصة أيضاً تتضح أسس العملية التعليمية مما يدل أوضح دلالة على أن السحر علم له أصول وضوابط وقواعد، وليس بالخيال كما يدعي بعض من يهرف بما لا يعرف.

الوقفة الثالثة

[فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر] .

الدرس الأول: التعاون :

قال المولى عز وجل : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [المائدة : ٢] .

أمرنا الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية الكريمة أن نتعاون على ما فيه مصلحة العباد والبلاد ونهانا عما فيه فساد وإفساد للعباد والبلاد وحذر من خالف أمره بالعقاب الشديد ورغم ذلك تجد أهل الباطل يتعاونون فيما بينهم غير مبالين من عذاب الله ـ عز وجل ـ ولهم همة عالية وعزيمة لا تفل ونشاط لا يهدأ في نشر باطلهم وطمس الحق حتى يصلوا إلى غايتهم المنشودة وهي تعبيد الناس لغير الله ـ عز وجل ـ فها هو الساحر في النزع الأخير من حياته يخاطب الملك بمكنون نفسه فيجده أذن صاغية فما يلبث الملك أن يطوف البلاد ويبحث بين العباد عن ضالته المنشودة حتى يعثر على غلام حدث نجيب أريب ويبعث به إلى الساحر كي يعلمه السحر.

أما أهل الحق في هذه الأيام فقد تفرقوا إلى فرق وجماعات وأحزاب شتى كل منهم يدَّعي أنه على الحق المبين، ويجب أن يكون الناس كلهم معه، فيُخَطِّيء غيره ويقدح فيه، ويظن أنه بذلك ينصر الحق، بل بذلك تقر أعين الجبناء، لأنهم يريدوننا هكذا لا نجتمع على كلمة سواء، وصدق فيهم قول رب البرية ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون : ٥٢-٥٣] ، ونسوا تحذير الله ـ عز وجل ـ لهم عندما قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ

الله مع الصابرين ﴿٤٦﴾ [الأنفال : ٤٦] ، فأصروا على التنازع والتصارع وبدأت كل فرقة توالي وتعادي غيرها على فروع ما أنزل الله ـ عز وجل ـ بها من سلطان فانعقد الولاء والبراء للجماعات ولم ينعقد لله فانتشر التعصب المقيت الذي نهى عنه النَّبيّ ﷺ حين دب الخلاف بين واحد من الأنصار وأحد المهاجرين، فقال الأنصارى: يا للأنصار! ، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين! ، فقال رسول الله ﷺ : "**ما بال دعوى الجاهلية ؟**" ..... "**دعوها، فإنها مُنتنة**" (١).

نعم والله إنها منتنة تزكم الأنوف ، فهل رأيتم رائحة نتنة يجتمع عليها أحد ؟! كلا، فالكل يهرول مبتعداً عنها، وكل واحد يجري في اتجاه، فصدق فينا وعد الله ـ عز وجل ـ لما تنازعنا فشلنا فشلاً ذريعاً وذهبت ريحنا فتداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فبعدما كنا أعزة بالتعاون والترابط صرنا أذلة بالتفرق والتناحر، فحُق للنبي ﷺ أن يتبرأ من أمثالنا كما جاء عن جبير بن مطعم رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال:" **ليس منَّا من دعا إلى عصبية، وليس منَّا من قاتل على عصبية، وليس منَّا من مات على عصبية** " (٢).

فلابد من توحيد الصف ونبذ العصبية والخلاف المقيت، فقد كتب عَبْدُ اللهِ العُمَرِيُّ العَابِدُ إلى الإمام مالك ـ رحمه الله ـ ينكر عليه اشتغاله بالعلم ويدعوه إلى التفرغ للعبادة، فكتب له مالك ـ رحمه الله ـ : " إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُب رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الجهاد، وآخر فُتح له في الجهاد ولم يُفتح له في الصدقة، ونشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر " (٣) .

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه برقم ٦٣ / ٢٥٨٤ ، والبخاري برقم ٤٦٢٤ .

(٢) رواه أبو داود برقم ٥١٢١ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٧٦٨٤ وضعفه الألباني في بلوغ المرام برقم ٣٠٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ٧ / ٤٢٤ .

فقد تختلف أساليب العاملين وتتنوع طرقهم في سبيل إحياء الأمة وإيقاظها وتغيير حالها، فمنهم من يرى أن الجهل قد تفشى في الأمة وأن إحياءها بإزالة غشاوة الجهل عنها، فُعني بالعلم وسلك طريقه تعلماً وتعليماً ودعوةً إليه.

وثان: رأى أن هذه الأمة إنما كانت خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فسخر وقته وجهده لإنكار المنكرات الظاهرة، العامة والخاصة، فاستغرق عليه ذلك جهده ووقته، ورأى أن هذا هو الطريق الذي ينبغي أن يسلك لإنقاذ الأمة، وأنه بمثل هذا العمل يدفع الله به العذاب عن الناس.

وثالث: قد تألم لحال من استهواهم الشيطان، فوقعوا في الانحراف والرذيلة، فسخر وقته وجهده لدعوة هؤلاء وإنقاذهم.

ورابع: قد رق قلبه للأكباد الجائعة والبطون الخاوية، فصار ينفق من نفيس ماله، ويجمع المال من هنا وهناك ومن هذا وذاك، فينفقها في وجوه الخير على الأرامل والمحتاجين وغيرهم.

وخامس: رأى أن هذه الأمة أمة جهاد، وأنه لا سبيل لرفع الذل عنها إلا به، فاستهوته حياة الجهاد وحمل روحه على كفه، وامتطى صهوة جواده، فهو كما قال الرسول ﷺ: " **مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِه فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِه، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ،** " (١) فيوماً تراه في المشرق ويوماً تراه في المغرب، وما بين هنا وهناك يسعى للجهاد في سبيل الله ، وأصبح لا يطرب أذنه ولا يشنفها إلا أزيز الرصاص وصوت السلاح.

وسادس: رأى أن هذا الدين دين الناس جميعاً، فسخر جهده لدعوة غير المسلمين وراح ينشر دعوة الله في ربوع الدنيا غير عابىء بجنس أو لون.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ١٢٥ / ١٨٨٩ ، وابن ماجة برقم ٣٩٧٧ ، وكنز العمال برقم ١٠٥٧٠ ، ومجمع الزوائد برقم ٩٤٣٨ ، ورياض الصالحين برقم ٦٠١، ١٢٩٩ .

وسابع: سخر قلمه لخوض المعارك الفكرية دفاعاً عن الإسلام ومصاولة لأعدائه، والمتحدثين زوراً باسمه كتابةً وتأليفاً، فصار يتحدث عن مشكلات الأمة وعن قضاياها، وقد لزم هذا الثغر يواجه به أعداء الله .

وآخر هؤلاء من رأى أن عدة الأمة وأملها في شبابها وجيلها الناشيء، فسخر وقته لتربية الشباب وإعدادهم وتنشئتهم على طاعة الله ، ورأى أن هذا الطريق هو الذي يخرج العاملين والمجاهدين وينقذ الأمة.

وهكذا ترى أبواباً من الخير وألواناً من نصرة الدين والدعوة إليه، وهي أبواب واسعة شتى تسع الجميع على اختلاف طاقاتهم وعقولهم وعلومهم ومداركهم وأفكارهم.

وهنا نتساءل: هل يلزمنا أن نستخدم وسيلة واحدة لإنقاذ الأمة، لأن الحق لا يتعدد ، وصراط الله المستقيم إنما هو واحد؟.

حين نرجع إلى عبارة الإمام مالك ـ رحمه الله ـ (وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر) نصل إلى هذه الإجابة: إن الوسائل كلها مطلوبة، بل لابد من القيام بها جميعاً، فلابد أن تقوم طائفة بهذا العمل، وأخرى بذاك، وثالثة بغيرهما وهكذا لندخل جميعاً من أبواب متفرقة، ونسد جميعاً هذه الثغور، ونقف على تلك الحصون، ولا يعيب بعضنا بعضاً، بل لسان حال كل طائفة يقول: (وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر) .

فيا عباد الله لم التناحر والتنابز والتشاجر والتباغض والتدابر والاختلاف؟، لم لا نتعاون؟ ، لم لا نوحد الصف؟ ، وتوحيد الصف لا يتأتى إلا بتوحيد الكلمة، وتوحيد الكلمة لن نصل إليه إلا عن طريق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ) ، ومعناها لا معبود بحق إلا الله وتطبيقها أن لا يطاع إلا الله في كل ما أمر أو نهى عنه وزجر فيما ورد في الوحيين الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف

الأمة فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فكل من هو مخلوق لا تجب طاعته إلا فيما يوافق الشرع المطهر، فمن أطاع هواه أو نفسه أو شيطانه أو عقله المحدود أو نزواته في مخالفة الشرع فقد ناقض كلمة التوحيد، وفي النهاية كلمة أقولها دائماً (أخلصوا تُخلَّصوا لأنه لا خلاص إلا بالإخلاص)[١].

---

(١) ليست هذه دعوة للتقريب بين الجماعات، ولكن دعوة إلى توحيد المنهج، ولن يتأتى ذلك إلا بأمرين:

الأول: توحيد مصدر التلقي و ليس هناك ما هو أفضل من الكتاب والسنة يمكن لعاقل أن يتخذه مصدراً لتلقي الهدى الإلهي وهذا ما بينه الرسول ﷺ فعن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله ، وسُنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض** » رواه الحاكم في المستدرك برقم ٣٢ / ٣١٩ ، وكنز العمال برقم ٨٧٥ ، وحسنه الألباني في منزلة السُّنَّة في الإسلام.

الثاني: منهج التلقي وهنا يكمن الخطر ويصعب الخطب ويطول الدرب ، فما من أحد ينتمي إلى جماعة من الجماعات التي على الساحة إلا وهو يدعي أنه يعمل بالكتاب والسُّنَّة ، ولكن ما منهجه حيال هذا التلقي ؟ هناك منهجان لا ثالث لهما : الأول هو العمل بالكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة ، الثاني هو العمل بالكتاب والسُّنَّة بفهم مؤسس الجماعة أو الطائفة وقد أمرنا الله ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ بالأول ونهى الله ورسوله ﷺ عن الثاني فقال جل ثناؤه مخاطباً نبيه وصحابته قائلاً : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هُم في شقاق فسيكفيكهُم اللّه وهو السّميعُ العليم (١٣٧) ﴾ [سورة البقرة: ١٣٧] فقد علق الله ـ عز وجل ـ الهداية على مطابقة المنهج لمنهج النبي ﷺ وأصحابه ومن تولى عن هذا المنهج وانتهج نهجاً غيره لا يناله إلا الفرقة والشتات والاختلاف في بادىء الأمر وبعد أن يظن أنه وصل إلى ما يريد يتولى الله ـ عز وجل ـ بنفسه استئصال شافته ولم يُسند ذلك لغيره لأنه سميع عليم ولقد أكد النبي ﷺ على التمسك بهذا المنهج فقد ورد عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: « **إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي** » رواه الحاكم في مستدركه برقم ١٥٥ / ٤٤٤ وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم ٢٦٤١ ومعنى ذلك أن من كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من الفرقة الناجية ومن خالف هذا الأصل فعليه أن ينتظر وعد الله ـ عز وجل ـ باستئصال شافته ولا يركب الأماني فإنه لن يصل إلى نهايته التي رسمها لنفسه.

وبذا يتضح أنه لا خيار في أن ننتهج النهج الأول وهو العمل بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فإن انتهجنا هذا النهج وفتح الله ـ عز وجل ـ على أحدنا بسابقة فضل فليُفْرِغ وسعه فيها وليجتهد أن لا يؤتي الإسلام من جانبه ولا يعيب على غيره فيما فتح الله عليه فيما يوافق الحق وليكن شعاره معه وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر وبالله التوفيق.